الباب الأول

طراز العصر الأموى (٤١ – ١٣٢ هـ) (٦٦١ – ٧٤٩ م)

نشأ نزاع بين طائفتين من المسلمين بعد انتهاء فترة حكم الخلفاء الراشدين على من هو أحق بتولى الخلافة الإسلامية ، فطائفة الشيعة كانوا يرون قصر الخلافة على ذرية على ، وأهل السنة كانوا يرون جعل الخلافة بالانتخاب من بين أفراد قبيلة قريش . وانتهى الأمر بانتصار فريق أهل السنة ، وفاز بالخلافة معاوية بن أبى سفيان وإلى الشام الذى ينتمى إلى أسرة بنى أمية التى تنتسب إلى قبيلة قريش. وكان معاوية قوى البأس ، أسس أول أسرة عربية حكمت العالم الإسلامى بنظام الوراثة لمدة تقرب من ٨٩ عامًا .

نقل معاوية مركز الخلافة الإسلامية من الكوفة إلى دمشق فى عام ٤١ هـ – ٦٦١ م ، واتسعت الإمبراطورية الإسلامية فى عهد بنى أمية، فامتدت غرباً إلى أسبانيا وشاطئ المحيط الأطلسى ، وشرقاً إلى شمال الهند وحدود الصين . وتميز عهد هذه الدولة بالرخاء وظهرت آثاره فى البلاد المحكومة ، ولكن حكمها انتهى عقب اشتعال ثورة فى إقليم خراسان شرقى إيران قامت بها القبائل التى تؤيد المذهب الشيعى بتحريض من بنى العباس . وانتهت هذه الثورة بتمكين زعيم بنى العباس (عم النبى) من الاستيلاء على حكم الخلافة الإسلامية بعد قتل الحكام الأمويين ، ولم ينج من الموت إلا واحد من أمرائهم تمكن من الفرار إلى شمال أفريقيا فى أول الأمر ، ثم انتقل إلى أسبانيا حيث استطاع تكوين دولة أموية غربية. ولقد كان اختيار الأمويين لمدينة دمشق كعاصمة للخلافة الإسلامية السبب الرئيسى فى قيام الفن الإسلامى الأول وظهور الطراز الأموى وهو أولى مدارس الفن الإسلامى . وكان لهذه الفترة أثر عميق فى تاريخ الإسلام ، حيث بدأ فيها اتصال الثقافة الإسلامية بحضارة الدولة الرومانية المسيحية البيزنطية الموجودة فى سوريا ومصر ، وحضارة الفرس الموجودة فى سوريا والعراق . وذلك لوقوع هذه البلاد وقت أن فتحها العرب تحت حكم الدولة

الرومانية البيزنطية مما جعلها متأثرة بفنونها ، كما كانت آثارها تحتفظ بالكثير من عناصر الفنون الهيلينستية والرومانية الوثنية . ولصلة هذه البلاد بإيران فى فترة الحكم الرومانى كان يوجد بها أيضاً بعض أساليب الفن الساسانى . وأصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية فى سوريا فى حوالى عام ٨١ هـ — ٧٠٠ م ، وفى مصر فى عام ٨٧ هـ — ٧٠٦ م وذلك فى عهد خلافة عبد الملك بن مروان . واستخدمت أول عملة إسلامية فى سوريا فى عام ٧٧ هـ — ٦٩٦ م وكانت تنقش بعبارات دعائية وباسم الحاكم .

العمارة :

اتبع النبى محمد وخلفاؤه الأربعة الراشدون البساطة فى العيش ، وكانت مساكنهم بسيطة استخدمت فيها الخامات البدائية ، كما اكتفوا بتشييد أماكن بسيطة للعبادة تفى فقط حاجة إقامة الشعائر الدينية . لذلك نجد أن تصميم أول مسجد إسلامى شيد فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كان بسيطاً بدائى العمارة . فمسجد المدينة الذى كان ملحقاً بدار الرسول كان عبارة عن مساحة مربعة يحيط بها جدران من الطين والحجر ، ويغطى جزء من سقفه بسعف النخيل المغطى بطبقة من الطين ، ويرتكز هذا السقف على عدد من جذوع النخيل . وكان الغرض الأول من إقامته هو جمع المصلين فى مكان واحد متسع ليقفوا صفوفاً فى مواجهة الكعبة فى مكة . وكان النبى يتجه قبل ذلك صوب بيت المقدس .

ولما امتدت فتوحات العرب إلى خارج شبه الجزيرة العربية ، استخدم المسلمون العرب بعض الكنائس التى وجدوها فى سوريا كأمكنة للصلاة ، كما قاموا بتحويل بعض القصور الفارسية فى إيران إلى مساجد بالرغم مما وجد بها من أشكال حيوانية [1] أما فى العراق ومصر فقام العرب بتأسيس مدن جديدة شيدوا فيها مساجد بسيطة ،

---

(١) ذكر أن تاج أعمدة مسجد الجمعة فى مدينة استخر Persepolis كان على هيئة بقرة . كما عرف مسجد قزوين بمسجد الثور ؛ انظر كريزويل « موجز العمارة الإسلامية المبكرة» باللغة الإنجليزية ص٨ (وكانت الأعمدة التى تنتهى برأس ثور معروفة فى عمارة قصور الفرس الأكمنيين) فى مدينة برسيبولس Persepolis انظر ش ٢١٥ كتابنا فنون الشرق الأوسط والعالم القديم . ولقد تميزت العمارة الدينية عادة فى الفن الإسلامى بخلو زخارفها من العناصر الحية وذلك لكراهية الإسلام لها .

فى جامع البصرة الذى شيد فى (١٤هـ ـ ٦٣٥م) والكوفة المشيد فى (١٧هـ ـ ٦٣٨م) اكتفى المسلمون بإحاطة قطعة الأرض بخندق محفور بدلا من الجدران، وسقفوا جزءاً منها بالخشب والجريد، وكان يحمل السقف أعمدة من جذوع النخيل أو من الأعمدة الحجرية التى جلبوها من الكنائس، أو من القصور القديمة التى وجدوها فى إقليم الحيرة على حدود العراق، وكان يسكن هذه المنطقة عام ٤٥٠م اللخميون الذين يدينون بالولاء للفرس، كما استقر ملوك « الغساسنة » الذين يدينون بالولاء للرومان على حدود سوريا حوالى ٥٠٠ م. ولقد تكرر هذا التصميم البسيط فى جامع عمرو الذى شيد فى مدينة الفسطاط الجديدة عام (٢٠ هـ ـ ٦٤١ م). واستخدم العرب هذه المساجد الأولى أيضاً كرباطات لجنود المسلمين[١].

تغيرت نظرة الحكام المسلمين إلى الحياة بعد أن انتقلت الخلافة إلى بنى أمية. فنجد أن بعض الخلفاء الأمويين بعد أن استقر حكمهم فى دمشق ودانت لهم جميع بلاد الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، انغمسوا فى البذخ والترف[٢]، كما اهتموا بتشييد العمائر الضخمة تشبهاً بمشيدات ملوك الفرس وحكام بيزنطة الفخمة. ولذلك يبدأ نشاط حركة المعمار فى عصر الدولة الأموية. ومن أهم مظاهر هذا النشاط المعمارى، مساجد فاخرة تتفق مع انتشار الدين الجديد، ولا تقل فى فخامتها عن الكنائس البيزنطية. كما يشمل أيضاً القصور والمساكن التى أقامها الحكام والأمراء الأمويون لسكناهم. ولقد استعان الأمويون فى مشروعاتهم المعمارية بعمال سوريين مدربين، كما استقدموا أيضاً العمال والفنيين المهرة من مختلف أقطار الإمبراطورية الإسلامية. ولقد نتج عن ذلك ظهور أول طراز فى تاريخ العمارة الإسلامية وهو الطراز الأموى. ولقد انتقل هذا الطراز إلى الولايات الواقعة تحت الحكم الأموى.

عمارة المساجد :

تطورت عمارة المساجد تطوراً كبيراً فى عهد الأمويين بعد مشاهدتهم ما ببلاد الشام من عمائر مسيحية. ولقد ظهر هذا التغيير فى فترة حكم الخليفة « عبد الملك »

---

(١) الرباط هو نوع من المشيدات كان يستخدم لإيواء المحاربين المسلمين الذين يدافعون عن الدين الجديد.

(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٧٢.

وازدهر فى عهد خلفه « الوليد بن عبد الملك » . وتظهر من تلك الفترة مساجد فخمة لا تزال قائمة حتى الآن أهمها « قبة الصخرة » و « المسجد الأقصى » ببيت المقدس و « المسجد الأموى » بدمشق . كما أقيم فى خارج الشام « جامع سيدى عقبة » فى القيروان و « جامع الزيتونة » فى تونس ، ولقد قام الحكام الأمويون بتجديد المساجد التى شيدت فى عهد الخلفاء الراشدين وهى جامع المدينة وجامعا البصرة والكرفة بالعراق وجامع عمرو بمصر .

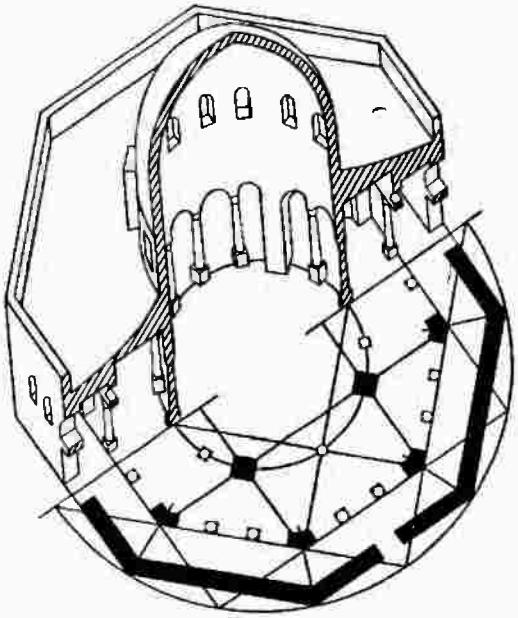

ا — تصميم مسجد قبة الصخرة بالقدس

شيد مسجد قبة الصخرة فى عهد « عبد الملك بن مروان » فى عام ٧٢ هـ — ٦٩١ م . وهو يتميز بتصميم فريد لم يعرف من قبل فى عمارة المساجد الإسلامية ، كما لم يتكرر ظهوره مرة ثانية (تصميم ٩) . ويمتاز هذا المسجد بجمال وفخامة زخارفه . ولقد جدد هذا المسجد عام ١٦٤ هـ — ٧٨٠ م . ويتكون هذا المسجد من بناء من الحجر مثمن الأضلاع (ش ١) ويقع بكل ضلع من أضلاعه الخارجية عقود مدببة تعلوها نوافذ ، ويتوسط الأضلاع المقابلة للجهات الأربع الأصلية من المثمن

أربعة أبواب . ويكسو الجزء الأسفل من الجدران الخارجية ألواح من الرخام ، أما الجزء الأعلى فكان مغطى بطبقة من الفسيفساء أزيلت فى العصر العثمانى فى فترة حكم « سليمان القانونى » فى عام ٩٥٠ هـ — ١٥٤٣ م ، واستبدل بها لوحات من القيشانى . ويتوسط المبنى الصخرة المقدسة التى ذكر أن النبى محمد ارتفع من فوقها إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج[١] . وتحيط بهذه الصخرة دائرة من الدعائم والأعمدة ، ويبلغ عدد الدعائم أربعاً ، ويقع بين كل دعامتين ثلاثة أعمدة . وتحمل هذه الدعائم واجهة أسطوانية مغطاة من الداخل بالفسيفساء قوام زخارفها فروع نباتية . ويوجد بهذه الأسطوانة ست عشرة نافذة مزخرفة بالقيشانى من الخارج ، وزخارف جصية بها زجاج ملون من الداخل . وترتكز على هذه الأسطوانة قبة خشبية مزدوجة الكسوة ، من الخارج مغطاة بطبقة من ألواح الرصاص ومن الداخل بطبقة من الجص المذهب ، ويفصل جدار المثمن الخارجى عن الجزء الدائرى مثمن أوسط يتكون من دعائم يكسوها الرخام وستة عشر عموداً رخامياً ذات تيجان مختلفة الطراز . ويعلو هذه الدعائم والأعمدة عقود زينت جدرانها بطبقة من الفسيفساء قوام زخارفها عناصر نباتية . ولقد نتج عن تشييد هذا المثمن الداخلى وجود رواقين داخلى وخارجى . ويغطى هذين الرواقين سقف من الخشب مزدوج الكسوة . فمن الخارج ألواح من الرصاص ومن الداخل ألواح خشبية منقوشة . ويوجد بقبة الصخرة محراب أملس غير مجوف ينسب إلى عبد الملك ، ومحراب آخر يعرف باسم قبلة الأنبياء .

يتضح من دراسة تصميم هذا المسجد الذى يعتمد على رسم دائرة داخل مثمن أنه ابتكار جديد ظهر فى تصميم المساجد الإسلامية . وربما كان وراء اختيار هذا التصميم ، رغبة عبد الملك فى تشييد مبنى يحيط بالصخرة المقدسة ليصلح مزاراً للمسلمين ، يحجون إليه ويطوفون حول الصخرة يتبركون بها بدلا من الذهاب إلى مكة ووقوعهم تحت تأثير ابن الزبير والى مكة الذى خرج عن طاعة الأمويين لمدة تسع سنوات .

ويظهر من دراسة هذا التصميم تأثر العمارة فى فجر الإسلام بالأساليب الفنية التى كانت سائدة فى بلاد الشام قبل دخول العرب بها . فتصميم المسجد مقتبس من تصميم بعض الكنائس التى كانت موجودة ببلاد الشام وإن اختلفت عنها فى

---

(١) ورد ذكر قصة الإسراء والمعراج فى القرآن الكريم فى الآية الأولى من سورة الإسراء .

التفصيل . فكنيسة القديس يوحنا فى (جرش) بسوريا التى شيدت فى عصر قسطنطين عبارة عن دائرة داخل مربع ، كما أن كنيسة الصعود الموجودة فى جبل الزيتونة فى الأردن (القرن الرابع الميلادى) كان تصميمها عبارة عن مثمن داخله دائرة (ش ٢) تحيط بصخرة كان يقف عليها المسيح عندما صعد إلى السماء[١] . كما أن استخدام القباب كان معروفاً فى بلاد الشام عندما فتحها العرب حيث وجدوا بها كنائس ذات قباب خشبية . ويتضح أيضاً من الفسيفساء التى عثر عليها فى مدينة مدابا « Madaba » بالأردن ، أن تصميم مدينة القدس كان دائرياً (ش ب) .

اهتم الوليد بن عبد الملك بتشييد مساجد بالشام عندما كثر عدد المسلمين بها ، وأهم هذه المساجد جامع دمشق الذى بدئ فى تشييده فى عام ٨٨ هـ — ٧٠٧ م وتم فى ٩٦ هـ — ٧١٤ م . ولقد أقام الوليد هذا المسجد فوق أساسات كنيسة القديس يوحنا التى أمر بهدمها . وكان المسيحيون قد شيدوا هذه الكنيسة فوق أنقاض معبد وثنى كانت له أبراج مربعة فى أركانه . ولا يزال أحدها قائماً فى الركن الجنوبى الغربى حيث أبقى المسلمون عليه واستخدموه للمناداة على الصلاة .

ويتكون هذا المسجد من مساحة مستطيلة يتوسطها صحن مستطيل مكشوف (تصميم ب) ويحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة الذى يقع فى الجهة الجنوبية وهو مكان العبادة . ويتكون رواق القبلة من ثلاث بلاطات طويلة موازية لجدار القبلة ، أما الأروقة الثلاثة فتتكون من بلاطة واحدة ، ويقع المدخل بالرواق الشمالى ، ويتعامد على منتصف رواق القبلة رواق قاطع ينتهى بالقبلة التى تتوسط الجدار الجنوبى . ويغطى منتصف هذا التقاطع قبة حجرية أضيفت فى عصر متأخر ، ويقل ارتفاع سقف الأروقة الطولية عن الرواق القاطع . ويغطى هذه الأروقة سقف خشبى منحدر على هيئة جمالون . وتظهر بالجدران المحيطة بصحن الجامع عقود تشبه حدوة الحصان محمولة على دعائم وأعمدة ، كما توجد بها أيضاً عقود مدببة الشكل (ش ٢) . ويعلو العقود صف من النوافذ لتخفيف الثقل عليها وهى مرضوعة بحيث يعلو كل عقد نافذتان . وكانت جدران المسجد الداخلية مغطاة بألواح من

---

(١) كريزويل ، ماقبله ص ٣٦ .

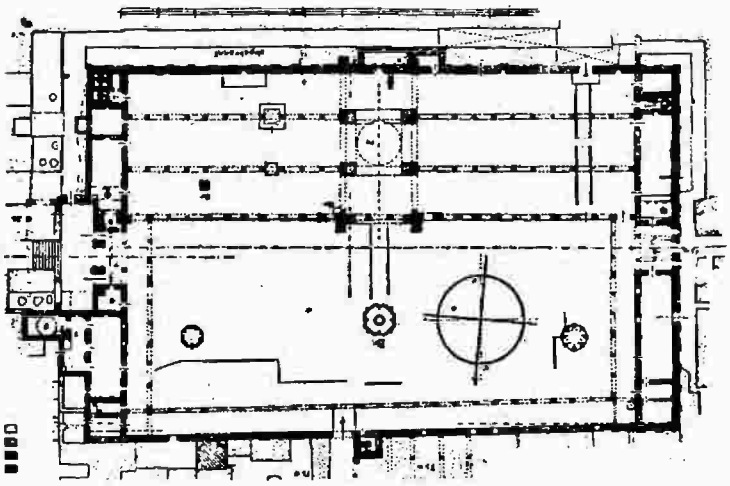

ب – تصميم المسجد الكبير بدمشق

المرمر من أسفل بارتفاع قامة الإنسان ، وبطبقة من الفسيفساء من أعلى ، ولقد بقى جزء منها فى الرواق الغربى وقوام زخارفه رسوم لعمائر بين الأشجار والأنهار .

من الواضح أنه طرأ تغيير على تصميم الجامع الذى كان معروفاً قبل العصر الأموى . وأن مهندس الوليد قد اقتبس تصميمه من شكل الكنيسة المستطيل مع تصرف فى بعض التفاصيل بطريقة عكسية . فتصميم الكنيسة يعتمد على أن المدخل المواجه للمكان المقدس يوجد فى عرض المستطيل القصير ، فى حين أن تصميم الجامع يعتمد على أن الضلعين اللذين يقع المدخل ومكان العبادة بهما أطول من الأضلاع الأخرى . كما أن أقواس الأروقة القائمة على الأعمدة توازى حائط القبلة فى الجامع بدلا من تعامدها معه فى الكنيسة . ويلائم هذا التصميم المصلين الذين يقفون فى صفوف طويلة موازية لجدار القبلة .

ولقد تأثرت مساجد بعض الأقطار الإسلامية التى شيدت فى العهد الأموى بهذا التصميم . فيظهر نموذج المسجد المستطيل ذو الصحن المكشوف فى مسجد حلب بسوريا ، وجامع الزيتونة بتونس ومسجد سيدى عقبة بالقيروان . كما ظهرت منه نماذج فى المساجد الملحقة بالقصور التى شيدها الأمراء الأمويون ، ويمكن القول أنه أصبح الشكل التقليدى للمساجد الإسلامية . ويذكرنا

واجهة الرواق الجنوبى الأجنبى فى هـذا المسجد أيضًا بواجهـة القصور البيزنطية المرسومة على زخارف الفسيفساء التى تغطى جدار كنيسة بمدينة رافينا (ش ج) .

ولقد دخلت فى عصر الأمويين عناصر معمارية جديدة لم تكن معروفة من قبل فى العمارة الدينية الإسلامية ، حيث ذكر أن معاوية أمر « مسلمة » واليه على مصر بتشييد صوامع للمناداة على الصلاة فى أركان جامع عمرو[١]، ويعد ذلك أول مرة يأتى فيها ذكر المآذن فى تاريخ العمارة الإسلامية . ولم تكن المآذن معروفة من قبل العصر الأموى، وربما اقتبست فكرتها من الأبراج التى كانت ملحقة بأماكن العبادة بسوريا، ولقد انتقلت فكرتها إلى مصر فى فترة حكم معاوية . ومن العناصر المعمارية التى أدخلها الأمويون أيضاً فى عمارة المساجد ، المحراب المجوف المقتبس من حنية الكنيسة[٢]، والمنبر الذى كان معروفاً فى الكنائس المسيحية واستخدم فى مصر منذ عصر عمرو بن العاص [٣] . كما ذكر أن أول مقصورة شيدت بجانب المحراب كانت للخليفة معاوية[٤] .

عمارة القصور :

لم يعثر للآن على آثار لقصور الحكام الأمويين فى العاصمة دمشق ، وتقتصر معرفتنا لعمارة القصور الأموية على بعض قصور متفرقة فى صحراء سوريا وشرق الأردن كان الحكام يقيمون فيها بعض الوقت للاستجمام . كذلك شيدوا قصوراً صغيرة يأوون إليها كاستراحات عندما يخرجون للصيد . ولقد استخدم الحكام الأمويون القصور الرومانية المخربة الواقعة على حافة البادية وعلى طريق الصحراء بعد ترميمها . فرمم يزيد بن عبد الملك قصر الموقر وجعله مركزاً لقصور البادية .

---

(١) أمر معاوية واليه على مصر فى عام ٦٧٣ م بتشييد أربعة أبراج لجامع عمرو (مقريزى الخطط والآثار طبعة بولاق جزء ثان ص ٢٧٠) .

(٢) يرجح أن أقباط مصر الذين كانوا ضمن من أمر بإرسالهم الوليد من أنحاء الإمبراطورية لإعادة بناء مسجد المدينة قد نقلوا فكرة الحنية الموجودة فى صدر الكنيسة إلى الجامع .

(٣) اتخذ عمرو بن العاص منبراً فى الجامع ولكن عمر بن الخطاب أنبه وأمره بكسره، وأن يتساوى مع المسلمين فى الصلاة (مقريزى ماقبله ج ٢ ص ٢٤٧). كما ذكر أن منبر جامع عمرو بن العاص نقل إليه من بعض كنائس مصر (مقريزى ج ٢ ص ٢٤٧) .

(٤) كرزويل ماقبله ص ١١ .

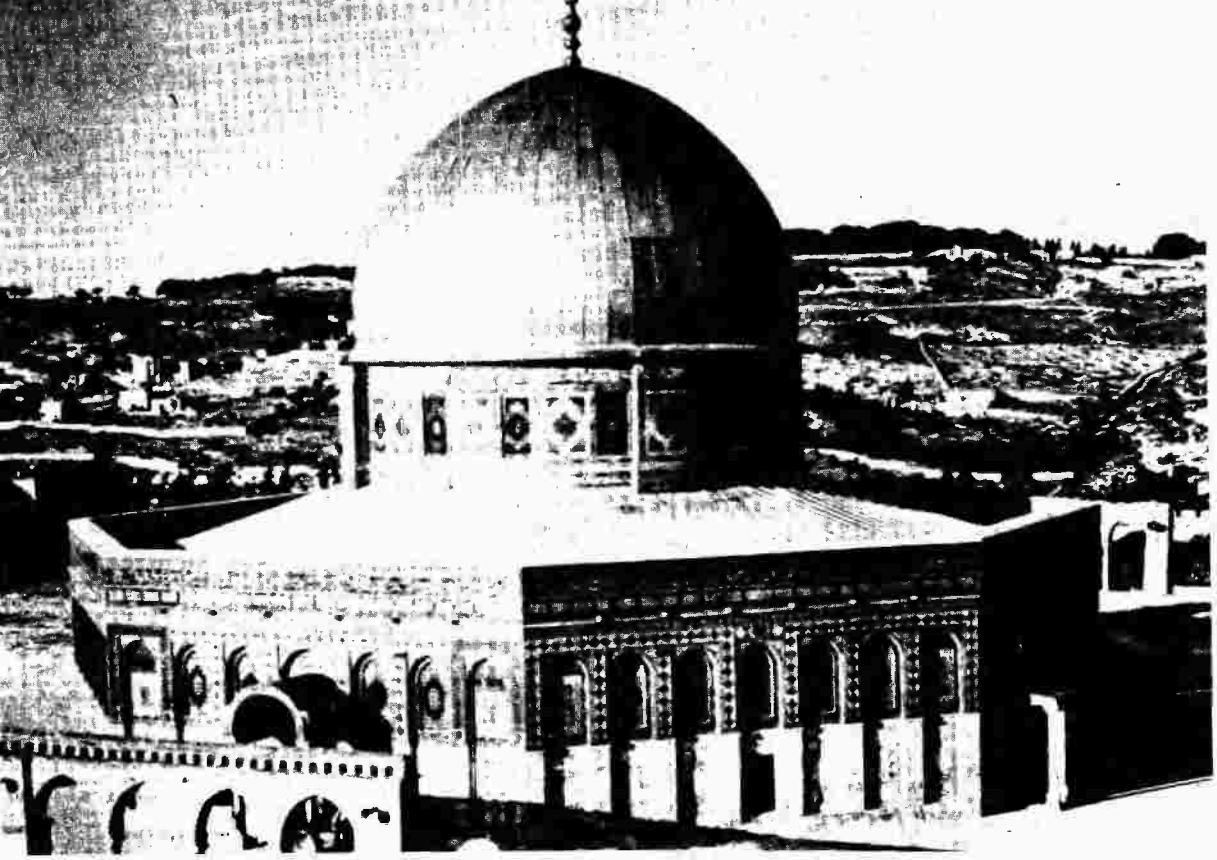

(شكل ١)

مسجد قبة الصخرة من الخارج ، بيت المقدس (٧٣ هـ - ٦٩١ م) ، العصر الأموى .

(شكل ٢)

صحن جامع دمشق الأموى ، بدئ فى تشييده عام ٨٨ هـ - ٧٠٧ م .

(شكل ٣)

زخارف من الفسيفساء ، حمام خربة المفجر شمال أريحا بالأرد
أوائل القرن ٢ هـ ، ٨ م ، ا
الأموى .

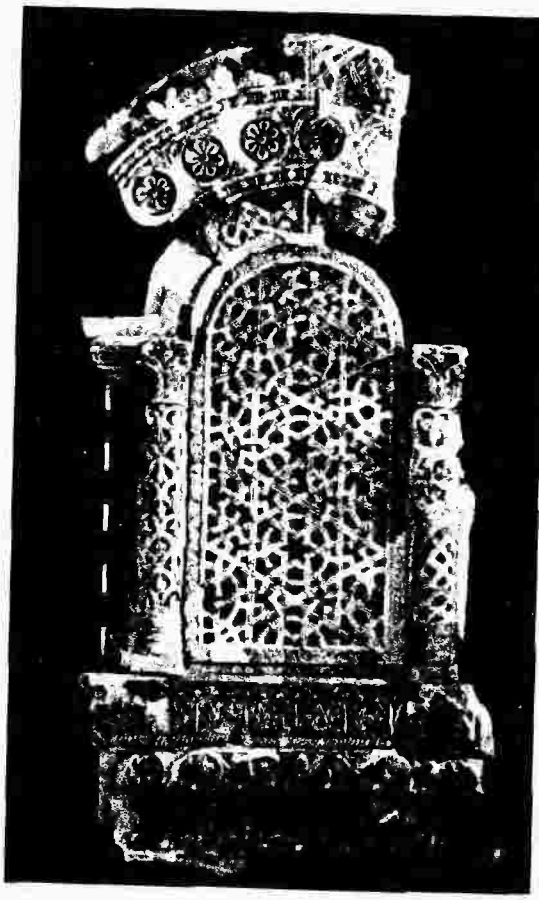

(شكل ٤)

زخارف جصية من قصر خربة المفجر
أشكال هندسية ونباتية .

(شكل ٥)

تمثال صغير لجارية نصف عارية
وجد بدهليز حمام قصر المفجر ،
متحف عمان .

وقد أراد الأمويون الجمع بين حضارة سكان المدن وترف أهلها وحبهم للبادية، فاقتبسوا فى هندسة هذه القصور الموجودة بالصحراء من كل ما وقع تحت أيديهم من مشيدات حضرية . فأحاطوا هذه القصور بأسوار منيعة تشبه أسوار القلاع الرومانية، مع اختلاف بسيط فى بعض التفاصيل، فالقلاع الرومانية محصنة بأبراج مربعة الشكل على حين تأخذ أبراج الأمويين الشكل الأسطوانى . كذلك اقتبسوا الكثير من العناصر المعمارية الموجودة فى الأديرة البيزنطية ، ثم أضافوا إليها الكثير من الأساليب المعمارية والزخارف التى عرفت فى قصور الفرس .

شيد الأمويون قصرى الحير الشرقى والحير الغربى بجوار مدينة تدمر - واستخدم الآجر فى كلاهما على أساس من الحجارة المنحوتة - أما باقى القصور الأموية وهى قصور المشتى والطوبة شيدا على الضفة الشرقية من نهر الأردن، والمفجر بالضفة الغربية منه ، وقصر المنية بالقرب من بحيرة طبرية ، وهى مشيدة جميعها بالحجارة ، وتتميز بكبر حجمها ومتانة جدرانها ، كما توافرت فيها وسائل الراحة والرفاهية، من حمامات مزودة بغرف الاستحمام بالماء البارد والساخن . وهكذا أصبحت البادية عامرة بهذه القصور الفخمة ، ويشترك معظم هذه القصور فى تصميم واحد تقريباً لا يختلف إلا فى التفاصيل .

ويعد **قصر خربة** المفجر من أهم القصور الأموية، وهو يبعد حوالى خمسة كيلومترات شمال أريحا . ولقد كشف عنه العالمان بارماك « D.C. Baramak » وهملتون « R.W. Hamilton » فى المدة ما بين عامى ١٩٣٠ م — ١٩٤٨ م . ويرجح نسبة هذا القصر إلى حكم هشام بن عبد الملك [1] (١٠٥ هـ — ١٢٥ هـ) (٧٢٤ م — ٧٤٣ م) . ويتميز هذا القصر بعظم اتساعه ، وبالرغم من أنه يشتمل على أكثر عناصر تصميم القصور الأموية إلا أنه ينفرد بأساليب معمارية فنية لا يوجد لها مثيل فى سائر القصور السابقة (تصميم جـ) .

يحتوى هذا القصر على ثلاثة أبنية ضخمة : ١ — مبنى للسكن ويشمل قاعة للبلاط وغرف الإدارة وغرف الحريم ويتوسطها فناء مكشوف ، ٢ — مسجد للصلاة ، ٣ — الحمام الخاص بالخليفة وحاشيته ، ويقع فى الجهة الشرقية من مبنى السكن ويفصله عنه

---

(١) عثرت البعثة فى أثناء الحفر خارج السور على قطعتين من الرخام كتب عليها اسم « عبدالله هشام أمير المؤمنين » .. إلخ

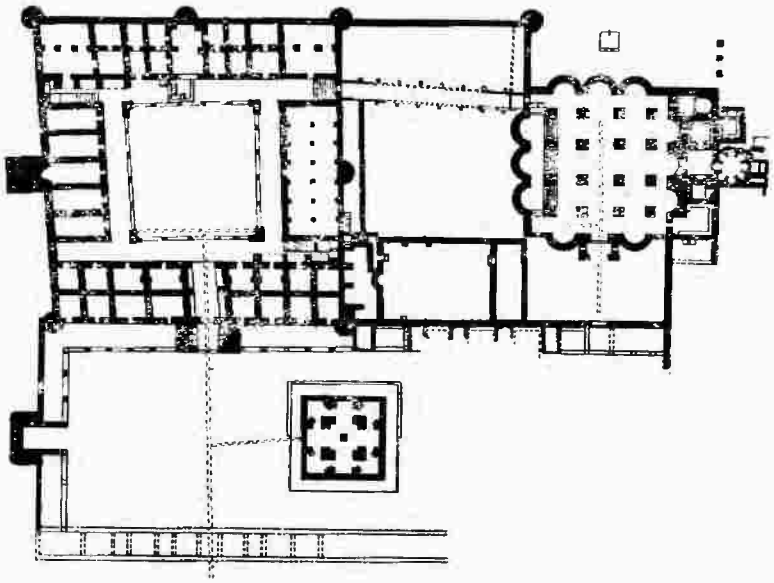

جـ – تصميم قصر خربة المفجر

فناء مربع مكشوف . ولقد أقيمت هذه المبانى على جانب فناء أمامى مستطيل الشكل يربط هذه الأبنية بعضها ببعض ويبلغ طوله ٣٠٦ أمتار وعرضه ٤٠ متراً . ويحيط بالفناء أروقة ذات أقواس ومدخله من الجهة الجنوبية منه ، كما توجد فيه بركة تتوسطها نافورة ومن حولها نماذج من الجص والحجارة لطيور مختلفة وحيوانات ، ويعلو النافورة قبة صغيرة محاطة بمثمن ، وتحمل القبة والمثمن أقواس ترتكز على أعمدة ضخمة . ويذكرنا هذا التصميم بمبنى قبة الصخرة .

ويتميز هذا القصر بوجود حمام آخر كبير خارجه أعد خصيصاً لهشام وحاشيته ، ويتميز بكبر حجمه وبكثرة القباب الموجودة بسقفه . ويتكون مبنى هذا الحمام من إيوان مربع مزود بثلاثة محاريب كبيرة فى كل من جوانبه الأربعة ، وتغطى أرض هذه المحاريب طبقة من الفسيفساء المزخرف ، ويتكون سقف هذا الإيوان من قباب وعقود على ارتفاعات متفاوتة وتحملها أقواس كبيرة ترتكز على ١٦ عموداً ، وتقع بالجهة الجنوبية للحمام بركة للاستحمام . كما يلحق بالركن الشمالى الغربى للحمام إيوان صغير ذو قبة يرجح من جمال زخارفه أنه كان مخصصاً لجلسات الأمير

الخاصة . ويوجد بجدران هذا الإيوان زخارف جصية بارزة لوحدات حيوانية وطيور ، وتغطى أرضيته زخارف تجريدية من الفسيفساء تشابه زخارف أرضية الحمام . ويوجد فى الجدار المواجه لمدخل الإيوان ، باب يؤدى إلى غرفة يأوى إليها الخليفة إذا ما فرغ من الحمام ، ويوجد بالقسم الخلفى لها غرفة صغيرة على شكل حنية كسيت أرضيتها بالفسيفساء الجميلة المزخرفة برسوم تمثل شجرة رمان أو نارنج مورقة يقف على جانب منها زوج من الغزلان يرعيان العشب الأخضر ، وعلى الجانب الآخر أسد ينقض على غزال ثالث ، وتبدو زخارف هذه الأرضية وكأنها سجادة (ش ٣) ، ولقد استطاع الفنان بمهارة توضيح الاستدارة والعمق فى عناصره النباتية والحيوانية باستخدام ألوان فاتحة وقاتمة فى الفسيفساء ، وتزين جدران هذه الغرفة ونوافذها زخارف من الجص البارز بأشكال نباتية وهندسية (ش ٤) وأخرى لطيور وحيوانات حقيقية وخرافية وراقصات نصف عاريات ، كما زخرفت الأسقف فوق الأبواب بالجص المفرغ . وتقع بالجهة الشمالية للحمام غرف عديدة مجهزة بما يلزم الاستحمام من الماء الدافئ والهواء الساخن وأخرى لمسح الجسد بالزيت . وبوابة هذا الحمام هى صورة مصغرة لمدخل القصر إلا أنها أكثر منه زخرفة . فيعلو مدخلها قبة صغيرة مزخرفة بحنيات وفى كل حنية منها تمثال جارية نصف عارية (ش ٥) ورجل يرتدى إزاراً ، كما يوجد فوق المدخل تمثال رجل واقفاً على منصة يحملها أسدان متدابران ربما يمثل الخليفة نفسه . وتصميم مسجد هذا القصر مقتبس من الجامع الأموى بدمشق .

ويلاحظ فى عمارة هذا القصر التأثر بالعناصر الهندسية التى كانت معروفة قبل العهد الإسلامى ، فالسور المحصن والبوابات المدعمة بأبراج المراقبة كانت معروفة عند الرومان ، كما أن وسائل الرفاهية الموجودة فى الحمامات كانت مقتبسة أيضاً من الحمامات الرومانية .

وبينما تتشابه معظم القصور الأموية مع تصميم خربة المفجر نجد أن قصر المشتى ينفرد بتصميم خاص مستمد من القلاع الرومانية وقصور ملوك العرب قبل الإسلام .

ويقع **قصر المشتى** فى الصحراء الأردنية ، ويبعد حوالى ٣٢ كم جنوبى عمان . **ولقد قام جدل كبير بين العلماء حول عروبة هذا القصر ونسبته إلى العصر الأموى**

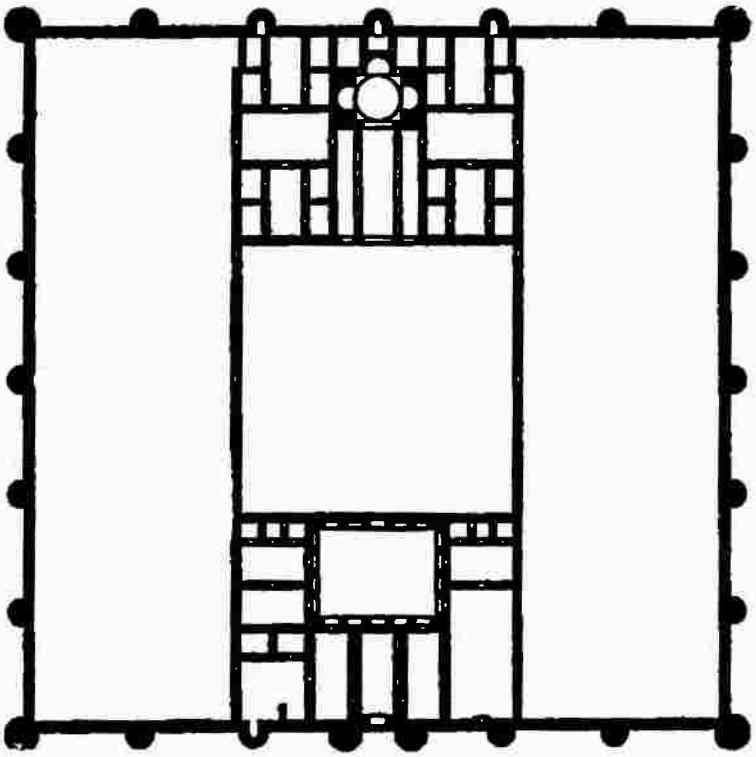

د – تصميم قصر المشتى

أو إلى عصر ما قبل الإسلام[١] . كذلك اختلف مؤرخو الفنون فى معرفة صاحب هذا القصر ، فنسب أولا إلى يزيد بن عبد الملك (١٠١ – ١٠٥ هـ) (٧٢٠ – ٧٢٤ م) لتشابه بعض عناصره المعمارية مع عمارة العصر الأموى الأول ، كما تتشابه زخارفه مع زخارف قبة الصخرة . ولكن أثبت بعض العلماء بالبرهان نسبة تشييد هذا القصر إلى الوليد الثانى فى الفترة (١٢٥ – ١٢٦ هـ) (٧٤٣ – ٧٤٤ م) ، أى أنه يعاصر قصر الطوبة الذى شيد فى أواخر العصر الأموى[٢] . ويرجع الفضل فى اكتشاف هذا القصر إلى الأستاذ لايارد « Layard » فى عام ١٨٤٠ م وقام بدراسته بعد ذلك الأستاذ تريستان « Tristan » فى عام ١٨٧٢ م .

---

(١) نسب هذا القصر إلى ملوك اللخميين ثم إلى ملوك الغساسنة كذلك نسب إلى ملوك الساسان وقت حكمهم لهذه المنطقة (٦١٠ – ٦٢٣ هـ) كريزويل ماقبله ص ١٣٨ – ١٣٩ .

(٢) اشترك فى الوصول إلى هذه النتائج الأساتذة رولنس وموزيل ولامنس ، كريزويل ما قبله ص ١٨٣ – ١٤٤ .

وقد صمم هذا القصر على قطعة مربعة الشكل يحيط بها سور محصن بأبراج نصف دائرية . ويبلغ طول ضلعه ١٤٤ متراً ، وتوجد بأركان السور الأربعة أبراج مستديرة ، ويقع المدخل بالجهة الجنوبية ويكتنفه برجان على شكل نصفى مثمنين (تصميم د) .

ولقد قسمت المساحة المربعة إلى ثلاثة أقسام متساوية ، وتقع المبانى فى الجزء الأوسط من المسطح ، أما القسمان الجانبيان فلم تشيد فيهما مبان ، وينقسم الجزء المبنى إلى ثلاثة أقسام : المبانى الأمامية وتقع فى الجزء الجنوبى الذى يوجد به المدخل ، ومبانى القصر الرئيسية وتقع فى الجهة الشمالية ، ويفصل بين المبنيين فناء كبير مربع ، ويؤدى مدخل القصر إلى قاعة مستطيلة توصل إلى بهو مربع ، ويحيط بقاعة المدخل والبهو حجرات جانبية . ويوجد بالقاعة التى توجد على يمين المدخل حنية بالجدار الجنوبى ، مما يدل على أنها كانت تستخدم كمسجد . أما المبنى الرئيسى فيتكون مدخله من قاعة مستطيلة مقسمة إلى ثلاثة أروقة على الطراز البازيليكى [١] ، وتنتهى هذه الأروقة بقاعة العرش المزودة بثلاث حنايا كبيرة نصف دائرية ، ويحيط بالبهو البازيليكى وقاعة العرش من كل جانب مجموعة من الغرف يتوسطها فناء مستطيل . ويلاحظ أن جدران القصر الداخلية وأقبيته قد شيدت بالآجر ، أما العقود والأركان فهى من الحجر . وترجع شهرة هذا القصر إلى الزخارف الجميلة المنقوشة على جدار واجهة المدخل الخارجى .

و بالإضافة إلى ما عثر عليه من قصور أموية واستراحات صيد بالصحراء السورية ، عثر أخيراً على بقايا مدينة أموية كاملة فى « أنجار » على طريق سوريا — لبنان يتضح فى آثارها التأثر بالعمارة الرومانية [٢] .

ويلاحظ أن تخطيط قاعة العرش فى هذا القصر عرف فى سوريا فى عهد ما قبل الإسلام ، كما يتشابه نظام الغرف بأفنيتها مع قصور اللخميين ، والغساسنة فى العراق والشام [٣] .

---

(١) البازيليكا هى طراز من العمائر عرف فى العصر الرومانى وهو بناء مشيد على مساحة مستطيلة مقسمة إلى ثلاثة أقسام بواسطة صفين من الأعمدة ، يجتمع فيها الناس لعرض مشاكلهم على هيئة تحكم بينهم.

(٢) كاريل دى رى — Carel J. Du Ry — Art of Islam 1970 Harry Abraham New York ص ٢٠ .

(٣) كرزويل ماقبله ص ١٤٥ .

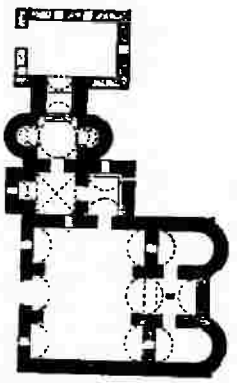

هـ — تصميم قصير عمرة

ومن قصور الصيد الأموية توجد عدة استراحات فخمة فى بادية الشام ينسبها الباحثون إلى « الوليد بن عبد الملك » لما عرف عنه من ولعه بالصيد . ومن هذه القصور الصغيرة « قصير عمرة » ويبعد حوالى ٨٠ كم شرقى عمان « وحمام الصرخ » و « قصر الحلبات » ويقعان شمال شرق عمان بحوالى ٤٠ كم ويتشابه تخطيط هذه القصور فى التصميم الهندسى .

ويعد « **قصير عمرة** » أهم قصور الصيد الأموية . ولم يتأكد للآن بصفة قاطعة نسبة هذا القصر الذى اكتشفه الأستاذ اليوس موزيل « Alios Musil » فى عام ١٨٩٨ م إلى الوليد الأول [١] . ويختلف تصميم هذا القصر الصغير (ش ٩) عن تصميم قصرى المفجر والمشتى فهو عبارة عن مبنى ذى طابق واحد مشيد بالحجارة ، وتتكون مبانى القصر من قسمين (تصميم هـ) ، قاعة الاستقبال وهى غرفة مستطيلة الشكل ، يتصدرها إيوان مغطى بسقف نصف دائرى يقع فى الجهة الجنوبية على محور المدخل . ويحف بهذا الإيوان إيوانان جانبيان توجد بمؤخرتهما غرفتان للنوم بهما نوافذ ، ويغطى كل من هذه الغرف أيضاً سقف نصف أسطوانى . والقسم الثانى وهو مبنى الحمام ، يحتوى على ثلاث غرف صغيرة ، الأولى للهواء البارد وسقفها مقبى نصف دائرى ومدخلها من قاعة الاستقبال ، والثانية الغرفة الدافئة ويتكون سقفها من قبوين متقابلين ، والثالثة الغرفة الساخنة وتعلوها قبة نصف دائرية محمولة على أربعة مثمنات . ويحتوى هذا الحمام على مغطس للماء البارد وآخر للماء الدافئ ، ويغطى أرضية الحمام بلاط من الرخام تمر من تحتها مواسير البخار الساخن . ويكسو جدران وسقوف هذا الحمام تصاوير جدارية ملونة كما توجد بقاعة الاستقبال أيضاً صورتان ملونتان .

---

(١) استبعد الأستاذ ريتشارد إيتنجهاوزن فى كتابه «التصوير عند العرب» ص ٣٣ نسبة القصر إلى الوليد بن عبد الملك ورجح أنه شيد خصيصاً إما للوليد الثانى أو ليزيد الثالث عندما كانا أميرين فى عهد الخليفة هشام .

ويلاحظ فى عمارة هذا المبنى التأثر بفنون ما قبل الإسلام ، حيث إن العقود العرضية التى تحمل الأقبية الطولية هى أسلوب ساسانى أخذه العرب من إيران . كذلك كانت عمارة العقود والقباب معروفة فى سوريا والعراق وإيران قبل الحكم الإسلامى ، كما كانت فكرة الحمامات الساخنة والباردة منقولة عن الحمامات الرومانية . وعلى العموم يلاحظ أن تخطيط هذا القصر مستمد من قصور الساسانيين ذات الإيوانات الموجودة فى « المدائن » (تسيفون)[1] . وترجع أهمية هذا القصر إلى مجموعة التصاوير الجدارية التى كان يحتويها ، ولقد دب التلف الآن إلى معظمها ولكن لحسن الحظ تمكن الرسام النمساوى ميليش « Meilish » من نقلها فى عام ١٩٠١ م عندما كان بصحبة مكتشف القصر .

الزخارف المعمارية :

تعد صناعة الفسيفساء والزخارف الجصية والنقش على الحجر والخشب من الفنون المكملة لفن المعمار ويستعين فيها المهندس بفئة من العمال المهرة لتكملة عمله . ولقد استخدم الأمويون الكثير من الزخارف المعمارية التى كانت معروفة فى سوريا قبل الإسلام ، فكسيت الجدران والأرضيات بالفسيفساء ، كما أن النقوش الحجرية التى زخرفت العمائر الأموية كانت متأثرة بالفن البيزنطى . ولقد ظهر فى العصر الأموى عنصر معمارى زخرفى جديد لم يكن معروفاً من قبل فى سوريا وهو تحلية الجدران بالزخارف الجصية .

زخارف الفسيفساء :

تتلخص صناعة الفسيفساء فى تثبيت مجموعة من مكعبات الزجاج الملون والشفاف وقطع الحجر الأبيض والأسود فوق طبقة الجص أو الأسمنت التى تغطى السطح لتكوين موضوعات زخرفية . وكانت هذه الصناعة مزدهرة فى العصر الإغريقى الرومانى ، حيث انتشر استخدام الفسيفساء الحجرية فى تحلية أرضيات المبانى . كما استخدمت الفسيفساء الزجاجية فى زخرفة الجدران فى العصر البيزنطى . ولقد تدهورت هذه الصناعة فى سوريا فى أواخر العهد البيزنطى ولكنها ازدهرت ثانية فى العصر الأموى ، ويشهد على ذلك ما تبقى من الآثار الأموية فى سوريا . وقد

(١) انظر اللوحة ٢٩٢ من كتابنا فنون الشرق الأوسط القديم ما قبل .

استخدم العرب عندما فتحوا سوريا التى كانت تحت الحكم البيزنطى ، العمال المحليين المتمرنين على القيام بالأعمال الفنية فى عهد ما قبل الإسلام ، ولقد عثر على أجمل الأمثلة من زخارف الفسيفساء فى مسجد قبة الصخرة وجامع دمشق وفى قصور خربة المفجر والمنية .

تعد زخارف قبة الصخرة أول وأقدم محاولة ظهرت فى العصر الإسلامى لهذا النوع من الفن الزخرفى المعمارى . وتغطى جدران المسجد عناصر زخرفية نباتية كثيرة ، نرى من بينها أشجار النخيل والصنوبر ، وأنواع الفاكهة مثل العنب والرمان ، وزخارف من نبات الأكانتاس . كما توجد بها أيضاً رسوم لأشجار محورة عن الطبيعة (ش ٧) . وبالإضافة إلى هذه الزخارف النباتية توجد رسوم لأوان تخرج منها الفروع النباتية المتعرجة المتصلة . وتظهر بين هذه العناصر المتعددة رسوم الجواهر والحلى وقرون الرخاء بالإضافة إلى وحدات الأهلة والنجوم ، وكان الهلال معروفاً فى بلاد الفرس فى العصر الساسانى ثم انتقل إلى زخارف بيزنطة . ونرى بين هذه الزخارف أيضاً أشكالا تشبه الشمعدان تعلوها زخرفة مجنحة . ولقد استخدم الساسانيون هذه الأشكال المجنحة قبل ذلك، ولكن المسلمين عندما اقتبسوها حوروا فيها وصارت عنصراً زخرفياً بحتاً لا معنى له . كما أن نبات الأكانتاس وورق العنب كانا أكثر العناصر الزخرفية شيوعاً فى العصر المسيحى فى سوريا ومصر . ونلاحظ على العموم أن أغلب التعبيرات الفنية التى وجدت فى زخارف قبة الصخرة كانت مقتبسة من الفنون الإغريقية والبيزنطية مع عناصر من الفن الهيلينستى والساسانى الذى انتقل إلى بلاد الشام وأقبل عليه الفنان السورى .

ويتضح تأثر الفن الأموى بالفن الهيلنستى فى فسيفساء الجامع الأموى أكثر منه فى قبة الصخرة ، حيث نلاحظ أن قوام هذه الزخارف هى عبارة عن مناظر طبيعية تصور نهراً على ضفته أشجار ضخمة وعمائر مدنية بعضها كبير يتكون من عدة طوابق (ش ٨) ، وتحمل أسقف هذه العمائر أعمدة ذات طراز كورنثى . وبالإضافة إلى الزخارف السابقة ، توجد أيضاً زخارف من وحدات نبات الأكانتاس الذى ظهر فى زخارف قبة الصخرة . ولقد فسرت هذه المناظر على أنها ربما تصور مدينة دمشق ، ومن المرجح أن العمال السوريين قد نقلوا فكرة رسم هذه المناظر فى زخارف

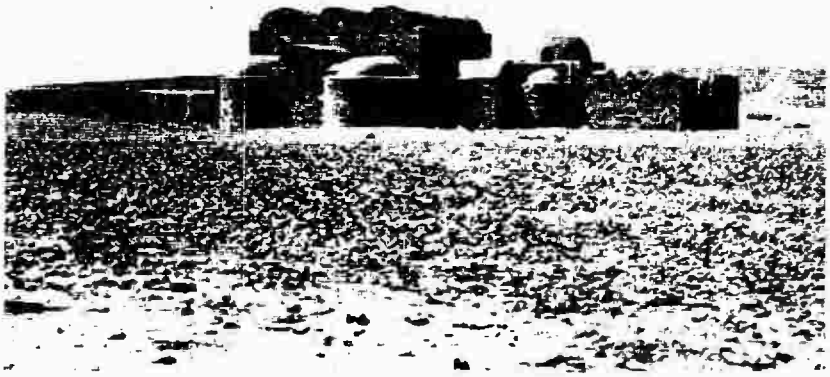

(شكل ٦)

قصير عمرة من الخارج ، صحراء الأردن ، أوائل القرن ٨ م ، العصر الأموى .

(شكل ٧)

زخارف فسيفساء تغطى عقود مسجد قبة الصخرة .

(شكل ٨)

زخارف فسيفساء تغطى جدران الرواق الغربى ، الجامع الأموى بدمشق .

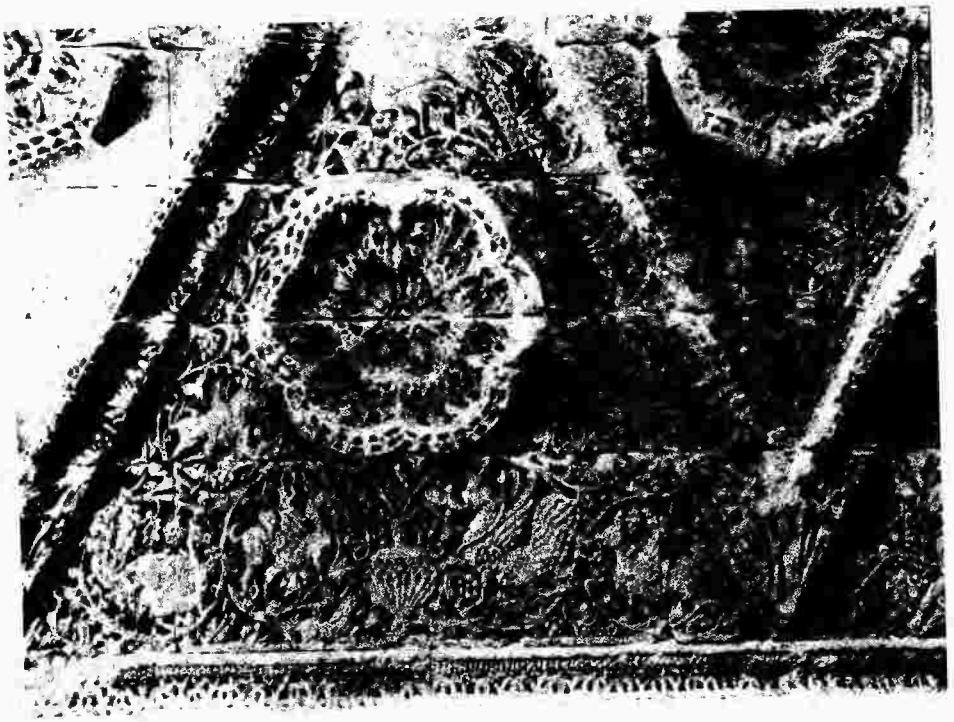

(شكل ٩)

واجهة قصر المشتى الحجرى ، يسار المدخل ، وكان يقع فى صحراء الأردن ، العصر الأموى ، حالياً بمتحف الدولة ببرلين .

(شكل ١٠)

تاج عمود به نقش كتابى باسم عبد الله يزيد أمير المؤمنين ، العصر الأموى ، حالياً بمتحف عمان .

(شكل ١١)

تصوير جدارى ، قصير عمره ، الأردن ، أوائل القرن ٨ م (عن موزيل) .

الفسيفساء من نماذج قديمة . حيث وجدت زخارف بها موضوعات مشابهة فى فسيفساء كنيسة بروما شيدت فى عهد الملك « جستينيان » مع اختلاف بسيط ، وهو أن المناظر فى الكنيسة الغربية رسمت كخلفية لرسوم الأشخاص الموجودين بالصورة ، فى حين أن صور جامع دمشق خالية من الآدميين . وقليل من الفسيفساء الموجودة حالياً فى الجامع الأموى يمكن نسبتها إلى عصر « الوليد » وترجع أغلبها إلى الإصلاحات التى قام بها السلطان السلجوقى « ملك شاه » فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى .

ويتضح تأثير الفن الساسانى فى الفن الأمرى فى العناصر الحيوانية الموجودة فى زخارف فسيفساء قصر هشام بالمفجر ، حيث تذكرنا وحدة الأسد المنقض على فريسته (ش ٣) بنظائره فى الفن الساسانى .

أما الزخارف الهندسية التى وجدت فى ذلك القصر وفى قصر « المنية » ، فتتشابه وحداتها مع زخارف وجدت فى عمائر شيدت فى أواخر العصر الرومانى وأوائل العصر البيزنطى (ما بين القرنين الرابع والسادس الميلادى) فى الأردن وفلسطين .

الزخارف الجصية والنحت على الحجر :

استخدم الفنان فى العهد الأموى الجص البارز المنقوش على نطاق واسع فى زخرفة القصور ، ولقد ظهرت منه أمثلة كثيرة فى قصور « خربة المفجر » و« الحير الغربى » وقصر « المنية » . ويعد أهم هذه النماذج ما عثر عليه فى قصر « المفجر » ، وذلك لاحتوائه على عناصر آدمية[1] (ش ٥) وحيوانية إلى جانب الزخارف الهندسية (ش ٤) والنباتية . ولقد أثار وجود تماثيل الآدميين الموجودة فى حنايا الجدران وفى بوابة الحمام تساؤلا بين العلماء فى شرعية هذا العمل الذى تم فى أوائل العصر الإسلامى ، وكيف سمح الحكام الأمويون السنيون بمثل هذا العمل . لكن الظاهر أن تحريم التماثيل اقتصر فقط على أماكن العبادة وشواهد القبور حتى لا تذكر المسلمين بأصنام الكعبة ، وبذلك لم يشمل المنع البيوت السكنية . أما استخدام

---

(١) عثر فى قصر الحير الغربى على قطع جصيه لأشخاص وطيور ولقد نقب على هذا القصر الأستاذ « دانيال شلومبرجر Schlumberger فى بادية سوريا عام ١٩٣٦ م

الزخارف الحصية فى تزيين الجدران فكان أسلوبًا معروفًا فى بلاد الفرس والعراق ، وأول من استخدمه فى إيران هم البارزيون ثم الساسانيون،ونقل العرب هذا الفن عنهم عندما فتحوا بلادهم .

ومن أجمل أمثلة النقش على الحجر واجهة قصر المشتى التى تزخر بالزخارف المنقوشة الجميلة ، وقد نقلت الواجهة الحجرية إلى متحف الدولة فى برلين[1] (ش٩). وتنحصر زخارف هذه الواجهة فى إطار أفقى ممتد بطول الواجهة الرئيسية يبلغ ارتفاعه حوالى ستة أمتار . ويحد هذا الإطار إفريز من أعلى ووزرة من أسفل ، ويزخرف كلاهما بنقوش دقيقة . ولقد قسم سطح الإطار إلى مثلثات عددها أربعون بواسطة شريط متعرج ذى زوايا حادة ، عشرون مثلثاً قاعدتها من أسفل وعشرون مثلثاً فى وضع عكسى . ويتوسط هذه المثلثات زخارف منحوتة على شكل وردة كبيرة يزخرفها نقوش قوامها مراوح نخيلية وأزهار اللوتس . ويزخرف الإفريز المتعرج والإفريزان الأفقيان نقوش لنبات الأكانتاس . ويغطى سطح المثلثات زخارف نباتية دقيقة محفورة حفراً غائراً . وتتميز المثلثات التى تتجه رؤوسها إلى أعلى بأن زخارفها كاملة بعكس المثلثات الأخرى التى لم تتم زخرفتها . ويمكن تقسيم زخارف الواجهة إلى مجموعتين : الأولى وتشمل زخارف الجهة التى تقع على يسار المدخل ، وتضم صور حيوانات طبيعية وخرافية وأوان تخرج منها فروع نباتية ، كما تظهر طيور بين سيقان نبات العنب . أما المجموعة الثانية التى توجد على يمين المدخل بالجدار الذى يكون إحدى جدران جامع القصر فلا نجد بها رسوم كائنات حية . كما أن تفريعات سيقان العنب الموجودة بها منقوشة بطريقة مجردة . ولقد اهتم الفنان فى زخرفة هذا الجزء من الجدار بتغطيته بالنقوش المنحوتة حتى اختفى السطح . كما بدت الزخارف كالمفرغة . ولقد ساعد النحت الدقيق الغائر على إعطاء تأثير زخرفى جميل نتج عن ذلك العمق .

ويتضح من دراسة زخارف جدار المشتى وجود عدة عناصر وتأثيرات بيزنطية وهيلينستية وساسانية . فورقة الأكانتاس المسننة كانت مستخدمة فى الفن المسيحى

---

(١) لفت الأستاذ « ستر زغوسكى Strezygowski نظر الإمبراطور غليوم إلى جمال هذا القصر ، فطلب من السلطان عبد الحميد إهداءه هذه الواجهة فنقلت إلى متحف برلين عام ١٩٠٥ م

فى سوريا وتعرف باسم « شوكة اليهود » ، ولقد انتقلت من سوريا إلى مصر فى الفن القبطى ، كما يظهر التأثير البيزنطى فى الإناء الذى يتفرع منه سيقان نباتية . ومن المعروف أيضاً أن العنب وأوراقه انتشر فى الزخارف المسيحية نقلا عن الفن الهيلنستى .

وأول من استخدم المراوح النخيلية وأنصافها . هم الساسانيون ، ولقد اقتبس المسلمون هذه المراوح التخيلية بدون تطوير فى أول الأمر ولكنهم حوروا فيها تدريجيًّا فيما بعد مما نتج عنه ظهور وحدة زخرفية مبتكرة إسلامية الطابع . أما حركة اندماج الأزهار فى الفروع النباتية الخارجة منها فى تعرج متكرر ، فهو أسلوب مشتق من الفن الساسانى . ويعد ذلك الأصل المباشر الذى قام عليه أسلوب الزخرفة العربى الأرابيسك « Arabesque » فى القرن الخامس الهجرى أى الحادى عشر الميلادى ، والذى يعتمد أسلوبه على اتصال الفروع بالأوراق اتصالا مستمرًّا . أما استخدام وحدات الحيوانات المجنحة فهو أسلوب فارسى لم يعرف من قبل فى سوريا ، وعندما اقتبسه المسلمون طوروا فى طريقة استخدامه فلم يكن له معنى خاص بل صار عنصراً زخرفيًّا بحتاً .

ولقد وجدت نماذج جميلة من النقوش الحجرية الجميلة فى قصر الطوبة ، ويظهر فى زخارفه النباتية التأثير الهيلنستى ، كما وجدت أيضاً ألواح من الرخام فى قبة الصخرة وجامع دمشق بها زخارف نباتية منقوشة تتشابه مع زخارف قصر المشتى فى التصميم والعناصر . ومن الزخارف الإسلامية المبتكرة التى أدخلها الأمويون زخارف كتابية منقوشة على تاج عمود (ش ١٠) وجد فى بركة قصر الموقر عام ١٩٥٤ . ويوجد بالنص اسم « عبد الله يزيد » أمير المؤمنين .

التصوير الجدارى :

مارس الفنان المسلم نوعين من التصوير : التصوير الجدارى ، وتصوير المخطوطات . ويتصل التصوير الجدارى اتصالا وثيقاً بالزخارف المعمارية ، فهو عبارة عن تصاوير بالألوان المائية ترسم على الجدران . ولقد اقتصرت زخارفه عادة على الموضوعات التى عرفت فى بلاد الشرق الأوسط قبل الإسلام ، مثل تمجيد الملوك أو مناظر الصيد والطرب . . إلخ ، كما استخدمت زخارف الأشكال النباتية

والطيور . ولم يعثر حتى الآن على أى دليل على ممارسة العرب لفن التصوير الجدارى قبل العصر الأموى ، كما أن هذا الأسلوب الزخرفى لم ينتشر فى العصور الإسلامية المتأخرة . واقتصر ظهوره على جدران الحمامات والقاعات الخاصة ، والظاهر أن المصورين فضلوا عليه النوع الآخر من التصوير الذى عرف باسم « تصوير المخطوطات » ، وهو عبارة عن تزيين المخطوطات والكتب التاريخية والعلمية ببعض الصور التوضيحية الملونة . ولقد برع الفنانون المسلمون فى جميع البلاد الإسلامية فى رسم هذه الصور التوضيحية ، وتميز كل بلد بطابع خاص . وعلى الرغم من عدم قيام مدرسة لتصوير المخطوطات فى العصر الأموى . إلا أن فن التصوير الجدارى ازدهر فى هذا العصر ، ووجدت نماذج منه فى قصرى « عمرة » و « الحير الغربى » . وترجع أهمية هذه التصاوير الجدارية إلى وجود عناصر حية بها مما أدهش مؤرخى الفنون حين اكتشافها ، حيث إن الفكرة التى كانت سائدة هى تحريم القرآن الكريم لتصوير الكائنات الحية آدمية أو حيوانية . إلا أنه ثبت بالدراسة أن القرآن لم ينص على تحريم التصوير ، وربما اقتصر المنع على الأحاديث النبوية التى تعد المصدر الثانى لتعاليم الدين الإسلامى ، حيث نسبت للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، بعض الأحاديث التى تنفر من تصوير الكائنات الحية أو عمل تماثيل لها . والظاهر أن هذه المعتقدات بدأ صدورها من رجال الدين الذين جمعوا الحديث فى بداية القرن الثالث الهجرى ، والمعتقد أن فكرة النهى المنسوبة للنبى كان يقصد بها حماية المسلمين فى أوائل عهدهم بالإسلام من الرجوع إلى الوثنية وعبادة الأصنام ، ولما زال خطر الوثنية ورسخت العقائد الإسلامية لم ير الحكام داعياً إلى هذا التحريم .

تعددت الموضوعات ذات العناصر الآدمية والحيوانية والنباتية فى زخارف قصير عمرة ، ويمكن تقسيم هذه الموضوعات إلى مجموعتين : الزخارف الموجودة فى قبة القاعة الساخنة الملحقة بالحمام والجدران وتضم صوراً من الحياة اليومية (ش ١١) ، والزخارف الموجودة فى قاعة الاستقبال التى فى القصر وتظهر بها صورة الخليفة . وتشتمل زخارف المجموعة الأولى على راقصات ونساء شبه عاريات ووحدات من مناظر الصيد ، ورسوم رمزية لآلهة الإغريق . كذلك تشتمل الزخارف على

رسوم تصور مراحل العمر المختلفة (الفتوة – الرجولة – الكهولة) ، كما توجد بها رسوم لطيور وحيوانات وزخارف نباتية ، ورسم يوضح دائرة الفلك التى يظهر بها بعض النجوم والأبراج ، ويظهر من دراسة عناصر هذه الصور التأثر بالفنين الإغريقى والرومانى المسيحى ، بالإضافة إلى بعض عناصر من الفن الساسانى . ويلاحظ أن عناصر هذه الزخارف الموضوعة داخل مناطق معينة ، قد نفذت بأسلوب هيلينستى .

وترجع أهمية قصير عمرة إلى رسوم المجموعة الثانية التى تظهر بها صورة صاحب القصر وتتكون من صورتين . الأولى موجودة فى صدر حنية قاعة الاستقبال ، تصور الخليفة جالساً على عرشه يحف به شخصان واقفان وتحيط برأسه هالة ، كما تعلو رأسه مظلة محمولة على عمودين حلزونيين ، وصف من الطيور الصغيرة ، ويتضح من تكوين هذه الصورة الأصول الساسانية التى وجدت منقوشة على الأطباق الساسانية الفضية . كما تظهر بالجدار أيضاً نساء شبه عاريات (ش ١٢) .

أما الصورة الثانية المرسومة على جدران القاعة فتصور ستة أشخاص مرتدين ملابس فاخرة واقفين فى صفين فى وضع المواجهة (ش ١٢ ا) ، رافعين أيديهم مع اتجاه الكف إلى الأمام . وتعد هذه الصورة التى اشتهرت باسم «أعداء الإسلام» أكثر أهمية ، وذلك لوجود شخصيات تاريخية بها . ولقد أثارت هذه الصورة جدلاً بين الباحثين للتعرف على أصحابها[1] . فرجح الأستاذ «فون برخن» من الكتابات الموجودة فوق رؤوس الأشخاص أن الصف الأمامى يوجد به ملوك إمبراطوريات كبيرة (إمبراطور بيزنطة وملك الفرس ورودريك آخر ملوك القوطيين فى أسبانيا) بينما يقف بالصف الخلفى إمبراطور الصين وحاكم السند وملك الحبشة . ويلاحظ فى تكوين هذه الصورة الأسلوب الساسانى ، كما أن طريقة وقوف الأشخاص فى وضع المواجهة مع رفع اليد المفتوحة كفها إلى الأمام هى أسلوب ساسانى أيضاً وكانت تعبر عن شارة الخضوع عند الساسانيين .

وتغطى التصاوير الجدارية الأرضيات فى أحد قصور الحير وهو قصر (الحير الغربى) الذى اكتشف عام ١٩٣٠ م . وقد قام بهذا الكشف الأستاذ «دانييل

(١) توصل الأستاذ فون برجن Von Berchen وأرنست هرتزفيلد وأوليج جرابار من معرفة معنى هذه الصورة كتاب . إتنجهاوزن ، ماقباه ص ٣٠ .

شلومبرجر » . ويقع هذا القصر على الطريق الذى يصل بين دمشق وتدمر . وترجع نسبته إلى عصر هشام بن عبد الملك [1] أى ربما شيد حوالى عام ١١٠هـ (٧٢٨ — ٧٢٩ م) . ويلاحظ فى زخارف هذا القصر أن الإفريسكو قد حل محل الفسيفساء فى كسوة الأرضيات . ولقد استخدم الأمويون أساليب كثيرة لرصف أرضية مبانيهم . ففى الأماكن المفتوحة كانت تغطى بالبلاط الحجرى ، وفى غرفة النوم استخدموا قطع الحجارة المخلوطة بالجير والرماد ، أما بقية الحجرات فكسيت بالفسيفساء .

ويظهر فى إحدى هذه التصاوير الجدارية التى نقلت إلى متحف دمشق ، رسم يصور آلهة الأرض فى وضع نصفى داخل دائرة ، وتحيط بهذه الدائرة عناصر زخرفية إغريقية مثل أوراق العنب والحيوان الآدمى الذى عرف عند الإغريق باسم « السنتاور » . كما نرى فى صورة أخرى فارساً يطارد الحيوانات بسهامه ويرتدى ملابس ثمينة وحزاماً ذا أهداب طائرة يتدلى منه جراب السهام (ش ١٣) . ويذكرنا هذا الفارس بملوك الساسان المنقوشين على الأطباق الفضية . ومما يؤكد التأثير الساسانى رسم العازفتين الموجودتين بأعلى الصورة التى وجد نماذج لها أيضاً على الأطباق الساسانية .

ويلاحظ أن طريقة رسم صور قصر الحير هو تحديدها العناصر باللون الأسود . ويظهر فى تصاوير هذا القصر التقاء التيارات المختلفة . فبجانب التأثر الإغريقى الكلاسيكى يظهر انطباع الفنان بأساليب الفن الساسانى .

الفنون الصغيرة :

لم نعثر من العصر الأموى إلا على القليل من الصناعات الدقيقة ، وبالرغم من قلة هذه القطع ، إلا أن دراستها تشير إلى تقدم فن الصناعات الدقيقة فى ذلك العصر المبكر .

الحفر على الخشب :

احتفظت صناعة النحت على الخشب فى العصر الأموى بالأساليب الفنية

---

(١) عثر على اسم الخليفة هشام منقوشا على جدار بقصر الحير الشرقى

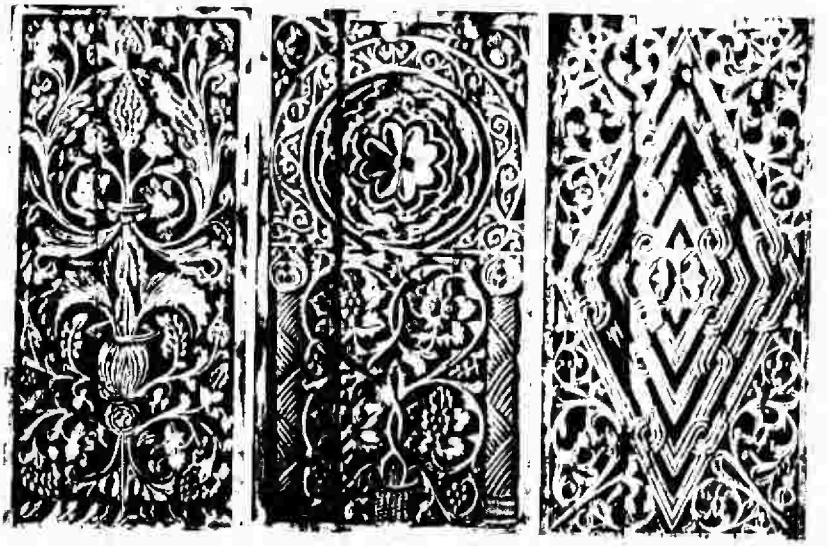

(شكل ١٤)

ثلاثة ألواح خشبية منقوشة ، عثر عليها فى المسجد الأقصى بالقدس ، العصر الأموى .

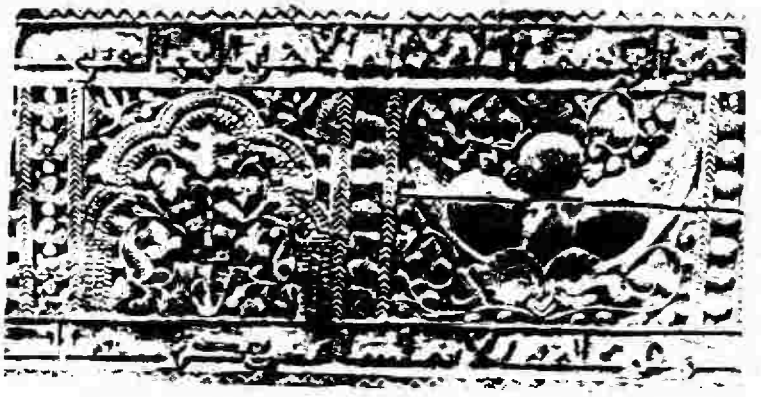

(شكل ١٥)

لوح من الخشف من صناعة مصر فى العصر الأموى ، أوائل ٢ هـ – ٨ م ، حالياً بمتحف الآثار الإسلامية بالقاهرة .

(شكل ١٦)

إبريق من النحاس وجد فى مصر فى منطقة الفيوم ، ٢ هـ – ٨ م ، حالياً بمتحف الآثار الإسلامية بالقاهرة .

(شكل ١٢)
صوير جدارى . قصير عمره .
. (شكل ١١٢) أعداء الإسلام
العصر الأموى

(شكل ١٣)
ر جدارى ، قصر الحير الغربى ،
الثانى الهجرى ، ٨ م ؛ العصر
ى فى سوريا ، حالياً بالمتحف
بدمشق .

التى كانت معروفة من قبل فى سوريا ، كما نلاحظ أن الزخارف على الخشب ما زالت عناصرها متأثرة بالفنون السابقة على الإسلام لا سيما الهيلينستية والساسانية . وأحسن مثل على ذلك ألواح الخشب التى عثر عليها فى المسجد الأقصى بالقدس (ش ١٤) . وتضم زخارف حشوات هذه الألواح وحدات من أوراق الأكانتاس وتفريعات العنب . كذلك نرى بها أشكال السلال التى تخرج منها الفروع النباتية ، ويشابه طريقة تجميع هذه الوحدات ذات الأصول المتنوعة فى عمل فنى واحد ، الأسلوب الذى اتبع فى زخارف الفسيفساء بقبة الصخرة وفى الزخارف المنحوتة على الحجر فى قصر المشتى . ولقد عثر على أمثلة من نحت الخشب الأموى فى العراق ومصر . ومن أحسن الأمثلة على ذلك لوح خشبى بالمتحف الإسلامى بمصر يرجع إلى أوائل القرن الثامن الميلادى وتظهر به عناصر من الزخارف الساسانية (ش ١٥) .

المعادن :

لم يعثر على الكثير من القطع المعدنية التى يمكن نسبتها إلى العصر الأموى . ومن القطع القليلة التى تأكد بصفة قاطعة نسبتها إلى ذلك العصر عدد من الأباريق البرونزية موزعة على المتاحف العالمية ، ويحتفظ متحف الآثار الإسلامية بالقاهرة بأحد هذه الأباريق (ش ١٦) .

يتميز هذا الإبريق بجسم كروى ورقبة أسطوانية ومقبض طويل ، أما صنبوره فشكل فى صورة ديك يصيح . وتزخرف جسم الإبريق نقوش محفورة قوامها دوائر وبداخلها وريدات ، كما أن نهاية رقبته تزينها زخارف مفرغة من أشجار النخيل ، ويزين المقبض زخارف منقوشة بتفريعات نباتية وثمار الرمان . ويلاحظ فى شكل هذا الإناء وزخارفه مدى تأثر الفن الإسلامى فى أوائل عهده بالفن الساسانى .

بالرغم من أن بعض المصادر التاريخية قد ذكرت أن الخليفة وليد الثانى كان يقتنى عقوداً بعدد أيام السنة[1] . إلا أنه لم يعثر حتى الآن على حلى يمكن نسبتها إلى هذا العهد .

نستخلص من دراسة ما سبق أن الفن الإسلامى بدأ نشأته فى أوائل حكم بنى

---

(١) L'art décoratif للمؤلف هنرى دى موران طبعة ١٩٧٠ ص ١٤٤

أمية فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى . وكان اهتمام حكام هذه الدولة بكافة فروع الفنون أول محاولة فى العصر الإسلامى للوصول إلى طراز فنى جديد التقت فيه تأثيرات فنية مختلفة وأطلق عليه الفن الإسلامى . فالعصر الأموى هوالفترة التى ظهرت فيها أولى المدارس الفنية الإسلامية التى عرفت باسم المدرسة الأموية . ويعد الفن الأموى فنًّا مركباً استمد عناصره المختلفة من الفنون التى كانت سائدة فى البلاد التى فتحها الإسلام فى منطقة الشرق الأوسط . فالهندسة الأموية المعمارية دينية كانت أو مدنية مشتقة أصولها من الهندسة الرومانية والبيزنطية والفارسية . واقد جمع الأمويون بين عناصر هذه الفنون المختلفة وأساليبها ووضعوها فى القالب الذى يلائمهم فى عمل واحد . كما استمد الفنان فى ذلك العصر الكثير من الزخارف المعمارية التى عرفت فى فنون ما قبل الإسلام . ونقل ما كان منفذاً فى زخارف الفسيفساء إلى ميادين وخامات جديدة كالنقش على الحجر . ويلاحظ أنهم لم يكتفوا بالاقتباس من الأساليب الهيلينستية والبيزنطية والساسانية ، بل حوروا فى بعضها وأضافوا إليها ما يتفق مع ثقافتهم ، ونتج عن هذا الجمع والتحوير والإضافة فن جديد يختلف عما اشتق عنه من الفنون . ونجح الأمويون فى فرض خصائص مدرستهم الفنية الجديدة على سائر الأقاليم الإسلامية التابعة لهم ،وإليهم يرجع الفضل فى وضع أسس العمارة الإسلامية والفن الإسلامى الذى لم يتبلور إلا بعد مرور قرنين من ظهور الدين الإسلامى . ولهذه الفترة أهمية خاصة فى دراسة الفن الإسلامى ،ويسميها كثير من الباحثين بالمرحلة الانتقالية من فنون ما قبل الإسلام إلى الفن الإسلامى .